# من ملامح النهضة اللغوية والأدبية بالمغرب الأوسط في العهد الموحدي
# أدب المنامات لمحمد بن محرز الوهراني أنموذجا

**أ حميدي بن شارف**

**جامعة وهران-- الجزائر**

**- توطئة :**

لا يختلف اثنان في حقيقة النهضة الحضارية الشاملة التي شهدها المغرب الأوسط في عهد الدولة الموحدية بحيث شملت تلك النهضة كل مناحي الحياة الفكرية، والأدبية، والفنية، والعمرانية. وقد شكل الموقع الجغرافي المميز لهذه الرقعة من العالم الإسلامي- كنقطة التقاء لمختلف الحضارات (الإفريقية، والآسيوية، والأوربية)- عاملا حاسما في تشكل هوية متميزة أثرت الإنتاج الفكري، والأدبي، وأخرجت للحضارة الإسلامية نوابغ حفروا أسماءهم عميقا في تاريخ الإبداع.

ومن بين هذه الأسماء المبدِعة يبرز اسم محمد بن محرز الوهراني ( 575ه 1179م) الأديب الألمعي، والقلم الساخر الذي اشتهر في فن الترسل، والإنشاء، وخاصة بأدب المنامات، وله في ذلك آثار جمعت في كتاب بعنوان : منامات الوهراني ومقاماته، ورسائله، والذي نشر بمصر سنة 1968.

والمتأملُ لتلك الآثار لاسيما منامه الكبير يدرك بعض جوانب التميز الأسلوبي لابن محرز الوهراني والتي جعلت منه صاحبَ إضافة لا غبار عليها مقارنة مع ما كان سائدا في فن المقامة من خلال أعمال بديع الزمان الهمذاني (358ه/395) ومن بعده الحريري (446ه/516ه)، ففكرة توظيف المنام لبناء عوالم متخيلة على غرار ما نجده في رسائل الغفران لأبي العلاء المعري (363ه/449ه) حرص ابن محرز الوهراني على أن تكون مطيته المخيالية لغرض أسمى وهو الولوج

إلى أعماق الواقع الاجتماعي، ومن ثم تعرية بعض المظاهر السلبية السائدة في مختلف الأوساط وهذا انطلاقا من براعة لغوية، وحسٍّ فكاهي وسخرية لاذعة، كما يمكن أيضا استشفاف الثقافة الموسوعية وثراء التجارب الإنسانية التي جعلت الأعمال الإبداعية لابن محرز تنطبع بطابع خاص يستحق الدراسة للوصول إلى إعطاء هذه الشخصية المكانة التي تستحقها في تاريخ النثر العربي. وضمن هذا المسعى يندرج هذا الجهد المتواضع.

**أ- نسبه وحياته :**

هو ركنُ الدين أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني (575ه 1179م)، وعلى الرغم من أننا لانعرف كثيرا عن حيـاته، من حيث المولد والنشأة، وشيخه الذين تتلمذ على أيديـهم، وتاريخ هجرته إلى المشرق بالضبط، فقد اكتفى أصحاب السير بوصف عبقريته اللغوية، وما خلف من آثار مكتوبة. إلا ما نقله صاحب طلوع سعد السعود في ترجمته لابن محرز بأنه "صاحبُ الرسالة المشهورة على لسانِ بغلته للأمير بمصر عز الدين موسك "(1) إلى أنْ يقول : "دخلَ مصرَ في حدود السبعين من القرن السادس، واشتهر بالعلم والأدب وحسن الفهم والنجب، وحصل بها من العلوم لبابها، وكشف الحقائق حجابها " (2) وأقدم من ترجم له من أصحاب السير صاحب كتاب وفيات الأعيان، يقول ابن خلكان:

" أبُو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين، أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين - رحمه الله تعالى- وفنه الذي يمتُّ به صناعة الإنشاء، فلما دخل البلاد، ورأى بها القاضي الفاضل، وعمادَ الدين الأصبهاني الكاتب، وتلك الحلبة، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا تنفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد، وسلَكَ طريقَ الهزل، وعمل المنامات والرسائل المشهورة به، والمنسوبة إليه، وهي كثيرةُ الوجـــــود بين أيدي الناس، وفيها دلالة على خفة ظله، ورقة حـاشيته وكمال ظرفه، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه " (3)

إلا أنَّ في كتابات ركن الدين إشارات واضحة على أنه هاجر إلى المشرق وقد اكتمل تكوينه العلمي، والأدبي وأراد لطموحاته في الوصول إلى الشهرة العلمية، والارتقاء الاجتماعي أن تتحقق بفتح أفاق جديدة بالبلاد المشرقية، ولعلَّ هذا هو المعنى الذي كان يقصده في المقامة البغدادية، يقول ابن محرز : **" لما تعذرتْ مآربي واضطربتْ مغاربي، ألقَيتُ حبلي على غارِبي، وجعلتُ مُذْهَبَاتِ الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي. فما مررتُ بأمير إلا حللتُ ساحتَه، واستمطرتُ راحتَه، ولا وزير إلا قرعتُ بابَه، وطلبتُ ثوابَه ولا بقاض إلا أخذتُ سيبَه، وأفرغتُ جيبَه. فتقلبَتْ بي الأعصارُ، وتقاذفتْ بي الأمصار، حتى قربتُ من العراقِ، وسئمتُ من الفراق. فقصدتُ مدينةَ السلام، لأقضي حجة الإسلام. فدخلتها بعد مقاساة الضرّ ومكابدة العيش المرّ."**(4)

وعاصر ابن محرز التحولات السياسية الكبرى في بلاد المغرب والأندلس مع الحركة الموحدية بقيادة عبد المؤمن بن علي، والذي امتدت رقعة سلطانه إلى كل البلاد المغربية والأندلسية، والذي يظهر من كلام ركن الدين في المقامة البغدادية عدمُ رضاه عن شدَّة الموحدين على من يخالف توجهاتهم المذهبية، فقد سأله أبو المعالي ( غالبا هو أبو المعالي الكتبي 568ه) وهو كما وصفه الوهراني : بستان الأدب، وديوان العرب، يستخبره عن الأحوال السياسية في بلاد المغرب والأندلس :

**" أوَّل ما أسألك عن دولة الملثمين، وأبناء أمير المسلمين. فقلت : هيهات، يا بُعْدَ من مات، خمدت نارُهم وبادت آثارُهم، واسودَّ ناديهم، وملكتهم أعاديهم .**

جَمَالُ ذَي الأرض كانُوا في الحياةِ وهـمْ بعدَ المَمَاتِ جَمَالُ الكُتْبِ والسيـر
أَفَلَتْ بُدُورُهـا، فتعطـلت صدُورُهـا وطَلَعَتْ نُحُوسُها فغَابَتْ شُمُوسُها(5)

ثم يستخبره الشيخ أبو المعالي عن أحوال الموحدين، وقادتهم :

**" فما تقول في عبد المؤمن وأولاده، وسيرته في بلاده ؟ فقلت : مؤيد من السماء، مسلط على من فوق الماء. خضعت له ذوو التيجان، وخدمه الإنس والجان. ولو أنَّ للقلم لساناً، وللورقة إنساناً، لتألمت وتظلمت ولأنشدتك في الملأ قول الشيخ أبي العلا :**

جلـوا صـارما وتلـوا بـاطلا وقالـوا صدقنـا فقلنـا نعـم(6)

والذي يجزم به الباحث من خلال تتبع مسيرة محمد بن محرز الوهراني الإبداعية هي تلك الثقافة الموسوعية التي كان يتمتع بها، مما يؤكد أنه قد حظي بتعليم غزير، ومعارف عديدة، وملكات متنوعة، وهي في الوقت ذاته دليل على زخم الحياة الأدبية واللغوية، ومرآة صادقة عن درجة التنوع والتطور في تعليم مختلف المعارف العلمية في بلاد المغرب عموما، والمغرب الأوسط على وجه الخصوص. فنحن نرى في نصوص ابن محرز إلمامه بالطب وأعلامه والمنطق ومؤلفاته، ومثل ذلك في الجغرافيا، واللغة، والأمثال والنوادر، وعيون الشعر قديمه وحديثه، مغموره ومشهوره، فهو ببساطة ووضوح نسيج فريد، وقلمٌ لا يشقُّ له غبارٌ في مضمار فنون النثر العربي. ونحن لا ندري إن كان للوهراني كُتُبٌ، ونصوصٌ أخرى غير التي بين أيدينا، فقد ذكر في مقامته البغدادية أنه ألف كتابا في التاريخ **" قال : كيف معرفتك بدهرك، ومن تركته وراء ظهرك ؟ فقلت : أما البلاد فقد دستها وجستها وأما الملوك فقد لقيت كبارها، وحفظت أخبارها، وقد كتبت في ذلك مجلدا، وتركت ذكرهم فيه مخلدا "** (7)، واستقر ابن محرز في دمشق بعد أسفاره الطويلة شرقا، وغربا وتولى الخطابة في أحد مساجدها بداريا إلى أن وافته المنية ودفن في تربة الشيخ أبي سليمان الداراني.

**ب- مقاماته ورسائله :**

والمقامة من الفنون النثرية التي شاعت في أواخر العهد العباسي، وأشهر من ألف في هذا الفن : بديع الزمان الهمذاني، وتبعه في ذلك الحريري، ناسجا على منواله، ومن أهم الخصائص الأسلوبية لهذا النوع الأدبي احتفاؤه بالتوقيعات الصوتية الموزونة، ومراعاة التجانس اللفظي، وكثرة استعمال المحسنات البديعية من : جناس، وطباق ومقابلة، وغير ذلك، كما يحرص كتّاب هذا النوع

الأدبي على إظهار روح الدعابة والسخرية، والظاهر أنَّ ابن محرز الوهراني كانَ متأثرا لحد ما بهذا الأسلوب الذي كان يطبع كل الأشكال النثرية في ذلك العصر كالمراسلات الإخوانية، والرقع السلطانية التي كان يكتبها الكتبة الحاذقون في دواوين الإنشاء .

ولما كان ركن الدين ذا قريحة إبداعية مميزة في فنون الكتابة النثرية حاول أن ينال الحظوة في بلاطات الأمراء والوزراء فكتب رسائله التي أخذ بعض منها شهرةً واسعةً بين عموم الناس لذلك العهد. وجملة القول في رسائل ومقامات الوهراني أنها اتخذت أشكالا إبداعية في غاية التنوع، فقد كتب عن سفره من بلاده إلى بغداد، وسجل في مقـامته تلك تأملاته في أحوالها، وكيف بدت له، ومدح الخليفة، وله مقامة أخرى عن رحلته إلى صقلية كما كتب رسائل إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، وأخرى إلى الأمير نجم الدين بن مصال، وإلى القاضي الأثير بن بنان، كما كان له نمط آخر في كتابة رسائله على لسان الحيوانات والجمادات على شاكلة رقعته التي بعث بها إلى الأمير عز الدين موسك على لسان بغلته، وخطبة إلى الطير، وأخرى على لسان المأذنة. ومثلها بلسان جامع دمشق، وله رقعة موجزة بليغة إلى أمه، يتحدث فيها ابن محرز عن خيباته في إدراك ما كان يتمناه من نجاح، ولا شكَّ أنه كان قد كتبها في بعض المراحل الصعبة من حياته، وفي آخر هذه الرقعة يؤكد لأمه وده، وشوقه لها، ونكتشف في هذه السطور القليلة رقة ابن محرز، وعواطفه الجياشة، وهو ليس بالأمر الغريب في شخصيته في بعدها الإنساني فقد كتب أيضا عن مظاهر الفاقة والعوز التي تعيشها الفئات المسحوقة في الحياة الإجتماعية. يقول ابن محرز :

**" مني إلى أمي أما بعد : فإني ما أفلحت عندك ولا ها هنا، دخلت القيروان بُكرَةً، واشتهيت أخذ الولاية ضحوة، وأتزوج بنت السلطان عشية، فلم تساعدني المقادير، فرجعت إلى سوق البزازين أبيع وأشتري، أبيع ثيابي وأشتري الخبز إلى أن نفذت البضاعة، فلزمت المساجد في أوقات الصلوات أسرق (لوالك) المصلين، وأرهنها عند اليهود الخمارين في المواخير على النبيذ، طيبي قلبك من جهتي، وإنْ قيل لك عني أني مدبر فلا تصدقي والسلام "** (8)

إنَّ هذه المجموعة من الآثار الفريدة لصاحبها ابن محرز الوهراني، وزيادة عن كونها مميزة في أسلوبها، هي أيضا سيرة ذاتية لأديب رحالة عاشَ الحياة حلوها ومرها، حِلها وترحالها، خيباتها ونجاحاتها.

## ج- الخصائص الفنية لنصوص ابن محرز الوهراني الإبداعية :

### 1- البراعة اللغوية والأسلوبية :

تتجلى البراعة اللغوية في أسلوب ابن محرز الوهراني في أبهى حللها، وأزهى ألوانها من خلال الثراء المعجمي الضخم، مع استعمال لبعض المفردات العامية بشكل محدود، بالإضافة إلى القدرة الفائقة على تخير الايقاعات المتناغمة العذبة، والتحكم في تلك الإيقاعات بما يناسب المقام، وأحوال المتخاطبين. بالإضافة إلى التنويع في الأسلوب، كما يشيع في أسلوب ابن محرز توظيف الاستعارات بأنواعها، والكناية، والتعريض، والتشبيه، والمثل وهي جوانب شائعة في كل نصوصه تنم عن اقتدار مخيالي، وقريحة ابداعية مميزة. مضافا إلى ذلك الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم، والنصوص الشعرية، ومتخير الأمثال، وطرائف القصص، فأسلوب ركن الدين اللغوي تحفة فسيفسائية تتداخل فيها عناصر معقدة لتخرجها قريحة ابن محرز جمالا فنيا باهرا يسلب العقل، ويمتع النفس ويبهج الفؤاد، ويحلق بخيال المتلقي بعيدا لتمثل عوالم مدهشة، وفي غاية الإبهار، كتصوير مشاهد النشور والقيامة، وهي من الغيبيات التي استهوت الخيال الابداعي لابن محرز، وبالتالي جعلته يتقاطع مع تجربة أبي العلاء المعري في رسائل الغفران، مع فارق في غاية الأهمية، وهو محاولة ابن محرز توظيف المنام لغاية أخرى تتجاوز الأفراد المعدودين إلى طبقات متعددة من المجتمع من خلال فضح كثير من سلوكاتها، وممارساتها المنحرفة بأسلوب يجمع بين التصوير الساخر، والنقد اللاذع، فلم يسلم أحد من مراصد ابن محرز الدقيقة، وهكذا نجده يتخير نماذجه البشرية على شاكلة : الملك، والقاضي، والطبيب، والشيخ الفقيه، والفيلسوف، والشاعر، " كما فضح المتصوفة، والشيعة، وكشف ما يجري في الأوساط الدينية من التكسب بالدين، واختلاس الأموال والتلاعب بموارد الأوقاف"(9) وغيرها من النماذج.

**2- الموسوعية :**

إنَّ الحديثَ عن الثقافة الموسوعية لابن محرز الوهراني حديثٌ ذو شجون، وعلامة من العلامات الفارقة في نصوصه الإبداعية، فحيثما جالت عيناك في فقرات، وثنايا تلك النصوص إلا ووجدت ما يؤكد هذه الملاحظة ويعزّزُ هذا الانطباع الأولي، فالرجل لا محالة ذو خلفية موسوعية من حيثية كونه ضليعا باللغة، والأدب ومستجمعا لجملة من العلوم الأخرى كالفقه، والحديث، وعلى اطلاع واسع بالطب، والجغرافيا، والمنطق وعلم الكلام، والتصوف، والسير، والأساطير وغيرها .

والمميز في أسلوب ابن محرز هو أنه لا يظهر هذه الثقافة الموسوعية على نحو مبتذل أو أن يقحمها إقحاما كمن يستعرض قدراته الموسوعية بل إنها تأتي ضمن سياقها السردي في غاية المناسبة، ووفق ما يتطلبه الموقف والمقام.

**3- السخرية اللاذعة وروح الدعابة:**

وهي خاصية فنية مهيمنة في نصوص ابن محرز كلها، فلا يجد القارئ بدا من أن يحكم لركن الدين بخفة ظله وقدرته البديعة في تصوير المواقف المختلفة، ومن ثم إسباغها بمسحة من مسحات الظرف، والدعابة، وهي طريقة بليغة لإيصال رسائله بطريقة ممتعة، والسخرية " فن أدبي يثبت الكينونة المخذولة، وفي الوقت نفسه للدفاع واتقاء أشباه الأدباء والفقهاء، وقد نجح الوهراني في زرع الخوف في نفوسهم "(10) والحقيقة أنَّ السخرية والنقد اللاذع قد طال الجميع حكاما ومحكومين أحياء وأمواتا، بل حتى الوهراني نفسه، فالفساد قد عمَّ البلاد ولم يستثني أحدا، لا الأسياد، ولا الأوغاد (11)، ولكي نعطي لمحة موجزة عن مكانة السخرية في نصوص الوهراني نأخذ رسالته التي بعث بها إلى الأثير بن بنان والتي يسرد فيها ابن حرز قصة لقائه مع إبليس الملعون وهو على صورة شيخ بغيض، وهي قصة ذات ملمح عجائبي، تجري وقائعها في إحدى الدروب المؤدية إلى القرافة وكيف أنَّ إبليسَ امتدح ابن بنان كثيرا، وأثنى عليه، واعتبره من

خاصته، متوعدا الوهراني بالانتقام الشديد إن هو حاول هجاء الأثير بن بنان في رسائله ومقاماته، ومكلفا الوهراني بتبليغ وصيته إلى أحد المحتالين الذين انتحلوا صور المتصوفة للتلبيس على الناس، يقول ابن محرز : " **ومنها أني خرجت ليلةَ الجمعة إلى القرافة من درب الصفا. فلما كنتُ بين تلك الأكوام لقيتُ هناك شيخـًا طويلاً في زي الصوفية عليه أثر السفر. فقلت : من أين أقبلت أيها الشيخ ؟ فقد اشمأزت نفسي منك. فقال: كنتُ عند يغبور ملك الصين. بلغني أنه قد مـالت نفسُـهُ إلى ديــن الإسلام، فخرجـتُ إليه من بلاد الزنج بعد الظهر فثنيته عن رأيه، ورجعتُ أطلبُ مدينةَ قرطبة في هذه الليلة أتممُ الفسادَ بين أولاد عبد المؤمن، وأرجعُ كما أنا إلى بلاد خراسان، فاقشعر جلدي من هذا الكلام، وقلت له : من أنت عافاك الله ؟ فقال: أو ما تعرفني يا وهراني ؟ فقلت : لا والله ما أعرفك. فقال : عجب أنا شيخك ومعلمك إبليس. حدثني ما هذا الذي يختلج في صدرك من ابن بنان ".** (12)

ثم يمضي إبليس الملعون ممتدحا ابن بنان بأنه : " **شرٌّ كله ليس فيه من الخير وزن مثقال ذرة، وهو في أعراض بني آدم مثل الطاعون في الأجسام. أشهد أنه من خاصتي، وقرة عيني**"(13)

ومتوعدا الوهراني : " **والله لئن آذيته بكلمة لأفرقن بينك وبين أم بنيك، ولأجعلن بينكما سدا من حديد. ثم توجه إلى ناحية المغرب. فلما هم بالطيران التفت إلي وقال : إنْ عثرتَ على الشيخ ابن الصابوني سلم عليه عني، وعرفه شكري له، وعتبي عليه، وقل له : ترضى لنفسك أن تكون مثل العنكبوت؟ نصبتَ الشبكةَ على زاوية قبر الشافعي، وقعدتَ تنتظرُ من يقعُ فيها ... البس مرقعتَكَ الملونة، وعباءتَكَ الصوف، واركب حمارك القصير، وشقَّ أسواقَ مصرَ والقاهرة، واخدع الناسَ بلطف سلامك وكلامك وغرهم بسالوسك* وناموسك، وعلمهم بلطيف احتيالك كيف يكون النصب والمحَال. وإلا وحياةِ أبي القاسم الأعور الذي هو خليفتي على بني آدم وقريني في نار جهنم محوتك من ديوان الطارين*. ثم غاب عن عيني فما رأيت إلا دخانا صعد إلى السماء**"(14)

## د - معمارية البناء القصصي للمنام الكبير:

يعتبر هذا الأثر الذي بين أيدينا، والمتمثل في ( المنام الكبير) لابن محرز الوهراني " من الآثار الأدبية الطريفة، وهو لون جديد من الألـــوان النثرية في الأدب العربي، نهج كاتبه فيه أسلوبا متفردا من حيث البناء والسرد ومعالجة الموضوعات التي تناولها فيه عن طريق استرجاع قصة تخييلية جرت أحداثها في عالم النوم واللاوعي، تتضمن رحلة إلى العالم الآخر الذي يمتزج فيه الواقع بالخيال، والمعقول باللامعقول، والمباح بالمحضور، والمدنس بالمقدس مما أضفى بعدا فكريا وفنيا على تجربته الإبداعية هذه. "(15) ويبدو أنَّ في اختيار ركن الدين للمنام - بوصفه حالة لانعتاق الروح من عالم المادة، وأغلال الواقع المعقد بقوانينه، ومظاهره الاجتماعية، والسلوكية - كآلية فنية جاء كحيلة مقبولة، وذكية للعبور إلى العوالم الغيبية للآخرة، وبناء قصتـــه الخيالية ضمن إطـار ما جاء في القرآن من مشاهد، ومواقف، وأسماء، وأحداث على نحو : النفخ في الصور، خازن جنهم مالك، ورضوان خازن الجنان والأعراف، وورود الحوض وغيرهـا، فيوظف ابن محرز ضمن هذا المجـال الغيبي أبطـال منامه في صور تعري وقائعهم الدنيوية، وتكشف الوجوه الأخرى التي كانت مخفية بعناية فائقة خلف الأقنعة الاجتماعية الزائفة.

تنطلق أحداث قصة المنام الكبير بالحديث النفسي للخادم الذي يستسلم أخيرا للنوم :

**" ثم غلبته عينه بعد ذلك فرأى فيما يرى النائم كأنَّ القيامة قد قامت، وكأنَّ المنادي ينادي : هلموا إلى العرض على الله تعالى، فخرجتُ من قبري أيممُ الداعي إلى أن بلغتُ إلى أرض المحشر، وقد ألجمني العرَقُ، وأَخَذَ مني التعبُ والفرقُ، وأنا من الخوف على أسوأ حال، وقد أنساني جميعَ ما أقاسيه عظيمُ ما أعانيه من شدة الأهوال. فقلت في نفسي : هذا هو اليومُ العبوسُ القمطرير"**(16)

والملاحظ أنَّ ابن محرز وهو راوي المنـام يتجسد شخصية الخادم منذُ لحظة القيام من القبر ليوم العرض الأكبر ثم يمضي السرد القصصي بسلاسة لغوية، وانسيابية أسلوبية بديعة من خلال المشاهد المتعاقبة على أرض المحشر فتارة يكون الراوي ومرافقه على جبل الأعراف، وتارة أخرى

بين يدي مالك خازن جهنم، وقد واجههما ببعض ما اقترفاه من فاحش الأعمال في الحياة البائدة، أو عند شاطئ الحوض، مع مرور النماذج البشرية وتعاقبها في صورة أفراد بعينهم كالمهذب بن النقاش، وابي المجد بن أبي الحكم، وأبي مسعود الأعور، والقاضي الشهرزوري، والحافظ العليمي، وتاج الدين الشيرازي، والملك الصالح صلاح الدين مع أبيه نجم الدين، وعمه أسد الدين وغيرهم إلى صور طوائف دينية على غرار جمهرة المتصوفة، والشيعة، والفلاسفة، وطبقات إجتماعية كالجواري، والكتبة وغيرهم .

ويلاحظ هيمنة الحوار في بنية القصة المنامية بوصفه من الآليات المركزية في رسم الملامح الداخلية والخارجية لشخصيات القصة، وتحريك عجلة الأحداث، بالإضافة إلى إضفاء نوع من الحيوية والمرونة في نمو الأحداث والانتقال السلس من مشهد إلى آخر.

وينتهي السرد القصصي للمنام بهذا الحذق الفني الكبير لابن محرز في تصويره الرائع لآخر مشاهده :

**" فبينا نحن في أطيب عيش وأهناه، وإذا بضجة عظيمة قد أقبلت، وزعقات متتابعة، وأصحابنا يهربون. فقلنا: مالكم ؟ فقيل : علي عليه السلام. قد أخذ الطرقات على الشاميين، وجاءنا سرعان الخيل فيها محمد بن الحنفية يزأر في أوائلها مثل الليث الهصور. فلما انتهى إلينا صاح بنا صيحة عظيمة هائلة، أخرجتني من جميع ما كنت فيه، فوقعت من على سريري، فانتبهت من نومي خائفا مذعورا، ولذة ذلك الماء في فمي، وطنين الصيحة في أذني، ورعب الوقعة في قلبي إلى يوم ينفخ في الصور "** (17)

وعند هذا المشهد يتنحى الراوي الرئيسي للمنام وهو ابن محرز، فاسحا مجال الكلام للخادم الذي يوقع العبارة الأخيرة منه " **كيف يرى سيدنا هذا النفس الطويل، والهذيان الذي أثاره التعب والانتقام ؟ وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وأصحابه، وسلم تسليما كثيرا** " (18)

## 1- مشاهد النقد اللاذع والسخرية في المنام الكبير :

نشير هنا إلى بعض من تلك المشاهد الكثيرة التي عرضها ابن محرز في منامه الكبير وهي تصور لنا حسه النقدي الساخر للظواهر السلبية المتفشية في المجتمع على غرار ما نجده عند كلامه عن سلبية المتصوفة، الذين تركوا معترك الحياة، وتعلقوا بقشورها الظاهرة :

**" فلما انتهى إلى شاطئ المشرعة، وقف عندها. فتقدمت إليه الصوفية من كل مكان، وعلى أيديهم الأمشاط وأخلة الأسنان، وقدموها بين يديه، فقال صلى الله عليه : من هؤلاء ؟ فقيل له : هؤلاء من أمتك، غلب العجز والكسل على طباعهم، فتركوا المعايش، وانقطعوا إلى المساجد، يأكلون وينامون فقال : فبماذا كانوا ينفعون الناس، ويعينون بني آدم، فقيل له : والله ولا بشيء البتة، ولا كانوا إلا كمثل شجر الخروع في البستان يشرب الماء، ويضيق المكان، فساق ولم يلتفت إليهم."**(19)

ونرى في مشهد آخر ابن محرز يصوب سهام نقده إلى بعض الجهلة في ممارسة الطب، فيقول على لسان أبي المجد بن الحكم وهو واحد من الأطباء المهرة كما يفهم من عموم السياق السردي :

**" هذا عزرائيل ملك الموت، وهو يعنى بالمهذب عناية عظيمة، وهو الذي شفع فيـــه، وخلصه من العذاب المقيم فقلت لكم : من أين هذه المعرفة والمحبة بين المهذب وبين عزرائيل ؟ فقال لي أبو المجد بن أبي الحكم : من جهة الطب، أما علمت أن المهذب كان من خيار أعوان ملك الموت في دار الدنيا : ما دخل قط إلى عليل إلا ونجزه في الحال، وأراح ملك الموت من التردد إليه، وشم الروائح المنتنة، والنظر إلى شخصه المزعج، وخلصه من الانتظـار الطويـــل، فهو يرعاه لأجل هذا، ويحبه من ذلك الزمان. وأما أنا فما أقدر (أوقع عيني في عينه)، ولا يبصر لي رقعة وجه أبدا لأني كنت أضاربه على العليل مضاربة حتى أخرجه من فكه، وأخلصه بعد اليأس فلا**

**جرم أنه ما أمهلني أتمم (الأرغن)* الذي ابتدأته، ولا تركني أتملى في الدنيا بأم أبي الحكيم ساعة من الزمان."** (20)

و من المشاهد الأخرى التي تصور لنا معاملة الفاطميين لمن يعارض عقيدتهم الدينية، وتضييقهم على النشاط الفكري للفلاسفة :

**" وأقبلنا نحن نطلب الشريف النقيب إلى أن وجدناه قائمًا مع جماعة من اليونـــان يسألهم عن بطليموس الحكيم هل صح عنده أن الكواكب المتحـــيرة طبـــائع أم لا، وهل قام له الدليل والبرهـــان على أطوال الكواكب وعروضها أم لا ؟ فلما رآنا قطع الكلام، والتفت إلينا، فسلمنا عليه، وقلنا له : يا سيدنا نظام الدين عسى (تتفضل) علينا وتمشي معنا ساعة، تشهد لنـا عند أمير المؤمنين بالبراءة مما قذفنا به عنده من النصب والانحراف عن أولاد فاطمـــة عليهم السلام، فقال: أنا والله في هذا الوقت مشغـــول بنفسي وعلى أن شهادتي ما تنفعكم عنده لأني رميت في مجلسه بالفلسفة، والعمل بأحكام النجوم، وقد أضرَّ بي ذلك عنده، وذوى وجهه عني. وأنـا من ذلك على خطر عظيم، ثم انصرف عنـا، فبقينا بعده حائرين.**(21)

**خاتمة :**

إنَّ المتأمل للنصوص الإبداعية التي تركها لنا ابن محرز الوهراني يدرك بما لا مجال للشك والريبة على أننا أمام تجربة إبداعية جديدة، ولا يسعه إلا أن يوافق الدكتور عبد العزيز الأهواني فيما ذهب إليه في تصديره لكتاب منامات الوهراني لما نشر في عام 1968 في أنَّ " هذه المجموعة من النصوص تمتاز في تاريخ النثر الفني في الأدب العربي بميزات ترفعها إلى مقام عال. ولا نكاد نجد في النثر العربي القديم نصوصا فيها ما في كتابات الوهراني من حيوية وذكاء ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب، وتصور في دقة وبلاغة بعض جوانب الحيـاة الفكرية والاجتماعية في عصر من

عصور التحول في المجتمع العربي " (22) فقد اجتمع عند ابن محرز ما تفرق عند غيره : فبين فن المقامة كما أرسى قواعده بديع الزمان الهمذاني، ومن سار على دربه، وبين فن الترسل والإنشاء، وما خلفه أيضا صاحب رسائل الغفران سلك ركن الدين طريقه الفريد مستفيدا من المتاحات الفنية الموروثة في بيئته الحضارية فليس من العدل أن نضع المنهج الفني لابن محرز تحت عباءة هذا، أو في ظل ذاك، وهل استلهام دانتي- وهو هو أحد رواد النهضة الأوربية - لتجربة أبي العلاء المعري في الكوميديا الالهية نزع عن هذه الأخيرة كل قيمة فنية وإبداعية ؟ بل إنَّ التجرد العلمي، والرؤية الموضوعية تفرضان على كلِّ ذي بصيرة نقدية الإقرار لابن محرز بسبقه في ابتداع هذا النوع الأدبي الذي همش قديما، وظلمته الدراسات النقدية، والمناهج الدراسية في الدول العربية بتجاهله حديثا.

## الهوامش

1 ــ طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، الآغا بن عودة المزاري.

تح : د يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990، ج : 1، ص : 95.

2 ـــ المرجع نفسه، ص 95.

3 ـــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تح : إحسان عباس، دار صادر، بيروت لبنان، 1978، ج4، ص385.

4 ـــ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني، تح : ابراهيم شعلان، ومحمد نغش، منشورات الجمل، كولن ألمانيا، 1998، ص1.

5 ـــ المصدر نفسه، ص2.

6 ـــ نفسه، ص (2، 3).

7 ـــ نفسه، ص 2.

8 ـــ نفسه، ص 207.

9 ـــ د عبد القادر مغدير، الوهراني ومناماته، رابطة أدباء الشام

www. Odabasham.net

10 ـــ فلسفة النقد والسخرية في كتابات ابن محرز الوهراني، د عبد القادر بو عرفة، مدونة تبر الخواطر

Bouarfah .blogspot.com :

11- المرجع نفسه.

12 ـــ منامات الوهراني، الوهراني، ص 86 – 87.

13 ـــ المصدر نفسه، ص 87.

*سالوسك : السالوس ثوب من الكتان يلبسه الصوفية .

*الطارين : النشالين الذين يسلبون الناس أموالهم.

14 ـــ منامات الوهراني، الوهراني ص (88، 89).

15 ـ المنامات لون نثري في الأدب العربي، علاء الدين محمد رشيد، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 19، العدد 7 2012، ص 323.

16 ـــ منامات الوهراني، الوهراني، ص (33 ـــ 34)

17 ـــ المصدر السابق، ص 60.

18 – نفسه، ص 60.

19 ـــ نفسه، ص (48 ـــ 49).

*الأرغن : ربما يقصد كتابا في الطب

20 ـــ منامات الوهراني، الوهراني ص (40 ـــ 41).

21 ـــ المصدر نفسه، ص (50 ـــ 51)

22 ـــ نفسه، ص 9.-